سریع الانحطاط

الفتی

— ١ —

من سيرة طفلٍ لا يشبه الأطفال

ونشأ ناشئ الفتنة في صِباه، يرى نفسه شيخاً وقد احتنك، ثم ينظر الشيخُ إلى صورته الأولى كمن ينظر من قفا المِرآة، فيستقبح من أمر صباه ما لا يُستحسن، ويستبطن من فاسد طبعه ما يدعو إلى التلهف: إذ كان لا يزال يجتلب الغرائز الدنيئة كما يجتلب الجائع الفُتات، ويُدني عقله الغضَّ من مهاوي الفكر الإلحادي دنوَّ الغرير من فخِّ الصياد.

حتى إذا كان ذات يومٍ من أيام النسيان، ونازعتْه حاجته إلى أمه، ناداها نداء المستغيث، فما أسعفته، ولا أجابته، كأنَّ الصدى أضل طريقه، فاستنجد أباه، وكان أبوه من الضُّعف بحيث لو نازعت الريحُ شَعرَهُ لسقط، فهتف معها، فما كان من الأم إلا أن لبثت في رقدتها، كأنها أُمرِضت عن السمع، فخرَّ الأبُّ مغشيًّا عليه، وطار طائرُ الوهم في الدار.
ثم كانت الخاتمة مضحكةً كأنها مأساة معكوسة: فالأم لم تكن ميّتة، بل كانت نائمة، ونومها أقام القيامة، وأزعج السكينة.
فاعتبرْ يا صاح، كيف يبلغ أذى الإنسان حتى في هجوده!

ومن بعد ذاك اليوم، أدرك الفتى مسّ الهلع، وأحس كأنَّ قابض الروح مرَّ من ناصيته، وانقبض قلبه، ورأى الموت يدنو ثم يتأخر، يراوغه كأنّ بينهما موعداً لا

يُعْلَن.

ثم انفتحت عليه أبواب الرؤى العدمية التي لا وجود لها بل هي ضرب من التأمل الزائد في أي شيء فيتشكل شكل داخل هذا الشيء يتحدث ويسمع، فكان يرى كياناتٍ لا تُرى، ويحادث أشباحاً لا تُسمع، فيحاورهم أحاديث لو أُذيعت في المحافل لعدَّه الناس من دُهاة المجانين.

لكنَّه ما إن يدخل في جمعٍ من الناس حتى يتقمّص دور المهرّج، ويضحك القوم حتى يُسقِطهم، ثم يسخرون منه كما يسخر المرء من ظلّه. فلا يردُّ، ولا يكشف عن عِلمه، ولا يستنجد بمن علّموه من العوالم الخفية.

— ٣ —

ثم مرت الأيام، لا تُحيي ولا تُميت، والولد من الداخل كقبرٍ تُرك مفتوحاً، تدخله الأرواح وتخرج، وكل شبحٍ يُعلّمه درساً، وكل درسٍ لا يُداوى به جرح.
والدهرُ عنده كالحمّام، بابه مفتوح، والجدران من بلل التأمل، وقد قعد مرةً على قضاء حاجةٍ، لا يدرى أكان يقضي حاجته أم يقضي عمره، فنظر في بلاطةٍ من الحائط، فرأى وجهًا، لا ككل الوجوه، بل وجه شيخٍ كأن الحكمة كَلِبَت عليه حتى نهشته.
قال له الشيخ — وكان كلامه بين البلادة والعِظة، كأنّ مَدرسةً نطقت من فمِ ساذج:
"يا هذا، الناس سُمٌّ في قارورة، فاشربِ المعروف ولا تنتظر منهم جزاءً ولا عُرفانًا، فإنك لن تجد غير النكران، وسُعال السخرية، وبصقة الإنكار."

وكان الفتى يُصغي كمن أُصيب بخيبة تَستأنس، يأخذ الحكمة من فم الخرافة، ويشكرها وهو لا يوقن إن كانت موجودة.
فصار كل يوم يجلس في الحمّام ينتظر البُلاطة، كأنها محرابٌ فيه يُوحى، والشيخ يأتيه كما يأتي الوسواس، لا يضجّ ولا يتأخر، يعظه وهو جالس على مرحاضٍ، فيخلط الطهر بالقذر، والتأمل بالنُّزول، فلا تعجب إن خرج يوماً من الحمام وقد صار فيلسوفًا.

ثم نسي الشيخ كما ينسى الطفلُ لُعبته حين يراها في يد آخر، نسيه لأنّ الحياة

علّمته ما يكفي ليحتقر من علّمه.
وهكذا انقضى زمن الخيال، ليبدأ زمن الخراب الواقعي.
ثم جاء عليه رمضان ، لا شوقًا ولا رهبة، بل كغيمةٍ مُعلّقة في سقفِ الروح، لا تُمطر ولا تزول.
وكان الغلام قد التقط كتابًا من ركامِ المدرسة، فقرأ سِيَرَ رجالٍ كانت قلوبُهم تُغني، وسيوفُهم تُفكّر،
رجالًا لو أقسموا على الله لأبرّهم،
ولو مرّوا بسوقنا اليوم لقالوا: "ما هذه الجُثث التي تتحرّك، أفي يومِ الحسابِ نحن؟"

فأعجب بخالدٍ، لا خالدُ صاحبُ المحتوى، بل خالدُ الذي كان إذا نظرتَ في عينيه رأيت المقابر،
وكانت الدنيا عنده كسَيفه: لا تُحَبّ، بل تُفتَح.

فلبس الصلاح كما يُلبَس الكفن:
أبيض، ثقيل، مخيف.
تجمّل بالتقوى، لا ليراه الناس، بل ليُقنع نفسَه أنّ للوجود معنى،
وما إن فعل، حتى خافه الناس،
وقالت له أمّه، وهي تغلي العدس وتُطفئ الإيمان:
يا بني، صَلِّ في قلبك، فالله لا يُريد أن تُخيفنا بمنظرك!"
وقال له أبوه:
"خفّف يا ولد، هذا زمنُ التيسير، ولسنا في عصور الجِمال والسيوف
فكتم الغلامُ بكاءه في تجويف ضِرسه،
وضَحكَ في صمتٍ يشبه الفُصام،
فصار إذا صلّى، خفض صوتَه كي لا يُتّهم بالتطرّف،
وإذا قرأ القرآن، فعل ذلك كما يُخفي

السجينُ قصيدةً في قعر وسادتهم وعظهم، كما يعظ الميّتُ زوّاره،
نصحهم، لا لينقذهم، بل ليبرّئ ذمّته،
وقال: "اتّقوا الله!"
فقالوا: "أنت تُشعِرنا بالذنب!"
وقال: "ابتعدوا عن الرذيلة."
فقالوا: "تُحكِم علينا بالوصاية!"
وقال: "صلّوا."
فقالوا: "لسنا أولادك!"

فكفّ عنهم،
ثم كرههم،
ثم تفرّج على خطاياهم كما يتفرّج الحكيمُ على قطيعٍ من الحمير
يغرق في ماء المطر.

وصار إذا رأى أحدهم في طريقٍ إلى جهنّم، قال في قلبه:

"الطريقُ مستقيم، فلا أُحذّرك، بل أُعجَب بقدرتك على التقدّم بثبات."
ثم دخل في زمنٍ لا يُذكر في كتب الأزمنة،
بل زمنُ "اللاشيء":
لا يبغض الحياة، ولا يُحبّها،
لا يخاف الموت، ولا ينتظره،
كأنّ روحه على مِرفقِ كرسيّ، تنتظر نداءً من موظّفٍ غائب.

صار إذا تألّم، قال: "جميل هذا الإحساس، لعلّه الحياةُ تذكّرني أنني لم أمت بعد."
وإذا ضحك، قال: "لعلّها سَكْرةٌ من غازٍ في دماغي."

وصار يرى الناس تماثيلَ من هشيمٍ،
كلّما اقترب من أحدهم، سمع خشخشةً في روحه،
فابتعد،
واختار أن يجلس مع جدارٍ، لأن الجدران لا تُخالف، ولا تُنكر، ولا تَبصق.

علِم الغلامُ شيئًا وهو التفكيك، لا تفكيك اللغة، بل تفكيك ما قيمة له لجعله لاا قيمة له

كالوجع مثالا، إذ رأى أن الألم ليس ألمًا واحدًا، بل اثنين:
ألمٌ أول، وألمٌ ثانٍ،
والأول في الظاهر، والثاني في اللب،
والأول حرارة الإحساس، والثاني حقيقة الشعور.

فإذا صُبَّ الماء المغليّ على الجسد، كان الألمُ الأول كسوطٍ من نار، يسأل الجسد فيه: "ما هذا؟"
فأجابه الغلام: هذا هو ردّ فعل الجسد إذا دخلت عليه حرارة لا يعرفها.
فلو صُبَّ عليه ماءٌ دافئ، ما صاح، وما ارتجف، فما الفرق؟
قال: "الفرق في الإدراك، والإدراك محضُ وهم."

فقال ساخرًا:
"لماذا لا نُدرّب أذهاننا على أن تستحسن الحرق؟
أليست اللذّة ألمًا بشكل آخر؟
فإذا أحببتَ الحرارة، زال عنك الوجع،
وإذا زال الوجع، فربما احترقت وأنت تضحك."

— ٨ —

وأما الألم الثاني، وهو الذي تخلّف بعد الغليان،
فكان كأنّ الجسد قد بكى حتى تعب،
ثم جلس ليستريح في وجعٍ مألوف،
فسمّاه الغلام: الراحة المتبقية من نُفرة الجسد الأولى.

وشبّهها بمن صُفع، ثم اعتاد الصفعة، فصار يشتاق إليها إذا لم تُصفعه الحياة.

ثم صُبَّ الماء المثلّج،
فوقع الألم الأول، كما وقعت السخونة،
لكنّه ألمٌ على هيئة صقيع،
بردٌ يُلسع كأنّك نائمٌ في حضن موتٍ خفيف.
ثم أتى الألم الثاني،
وكان نفس الألم الثاني الذي جاء بعد الماء الحار،
كأنّ الحقيقة عند الطرفين واحدة،
وما نختلف فيه هو الطريق إلى هذه الحقيقة.
فإنّما نُميّز ما قيمة له بمزاج الحواس،
أما الروح، فإنها لا تفرّق،
هي فقط تعرف أن ثمّة وجعاً،
وقد يكون الوجع نِعمة إذا تأمّله،
أو عذاباً إذا أنكره

فالشمّ إذا فسد، لم يعد صاحبه يميّز بين وردٍ ومزبلة
فلم حينما تشم رائحة كريهة
تعدها كريهة ولماذا حينما تشم رائحة حسنة
تستحسنها
لماذا لا تتساوى
الحسن كالقبيح

،

وإنّ البصر إذا كُشف له ما لا ينبغي، صار عبئاً على
صاحبه،
وإنّ من يسمع الحقائق كما هي، فإنه يسمع ما لا
يُحتمل،
فيُكرَه، ويُسبّ، ويُقال له: اسكت

كان الغلام يعلم أن الناس نائمون،
لا كالنوم الخفيف، بل كنوم الموتى.
فإذا قال لأحدهم في الحلم: "أنت تحلم!"
قال له الآخر: "اخْرس!"
وإن زاد، طُرد.
وإن ألحّ، قالوا: "أفسدت علينا حلمنا."

وكان لا يهتم، لا لبلادة، بل لتحرّر.
لكنه يتعلّم شيئًا جديدًا، لا لأنّه راغب، بل لأن يده تعلّمت أن تتقن ما تلمسه،
يتعلّم كمن يُصنّع سلاحًا لن يُقاتل به،
ويُتقن كمن يُعدّ نفسه للموت، لا للحياة.

لكنه لا ينتمي.
قال: فالتبعية قيد،
والصنعة إذا صرتَ عبدًا لها، صرتَ ترسًا.
والترس لا يختار، بل يُدار.

وكان يحدّث نفسه، فيقول:

"إذا كنت دونهم، قالوا: غبي.
وإذا كنت فوقهم، قالوا: غبي.
فكأنّ الغباء ليس في نقصك، بل في خروجك عن مستواهم."
فصار يخفي ما يعرف،
ويُبسط ما تعقّد،
ويُنكر ما أتقن،
حتى لا يُتهم بالكِبر.

حتى علومه القديمة، من علوم الآلة والتفسير والتأويل،
صارت عنده كملابس فاخرة، لا يلبسها إلا في بيته.
يخرج للناس بثيابٍ رثّة من العاميّة،
ليُفهم، لا ليُعجَب.
قال:
"إني إن نطقتُ كما أعلم، كفّروني،
وإن سكتُّ كما يرضون، احترموني

وكان يرى الأرض لا كما يراها سائرُ الناس سوقًا ودارًا ومخبزًا ومقبرة، بل كان يراها ظلَّ شهابٍ مرَّ عن صَفوِ الأزل، ثم نسيه الأبد، ومضى، وما خلفه غير دخانٍ ناعمٍ يُقال له: الواقع.

وكان إذا جنّ الليل عليه، وهدأ ضجيجُ السُوقة، خطرت عليه خاطرته الكبرى، فارتجّ لها عقله ارتجاجًا، كما ترتجّ الريحُ في جوف مئذنةٍ نُزعت عنها الصلوات:

أنّا لسنا بالأصل، بل نحنُ الخيال،
أنّا لسنا سِوى انكسار نظرٍ وقع من عينٍ لا تُبصرنا كما نحن، بل كما تتوهّم.

قال: "ثمّة كوكبٌ، لا يُرى ولا يُزار، هو الراصدُ لا نحن،
هو الأصل، لا نحن،
هو العاقل، ونحنُ ذكرى في فكره."

فإذا أغمض الراصد عينه، انطفأنا كما تنطفئ شمعةٌ لم تُضِئ إلّا على حائطٍ لا جدران فيه.

فما حياتنا — عند الفتى — إلا انعكاسُ شعاعٍ تخلّف عن زمنٍ آخر، تأخّر عن لُقيَاه، فوقع علينا نحن، فحسبناه نحن.

قال: "نحنُ كنجمٍ، يُبصره الرائي، وقد مات مذ ألف عام،
لكن الضوء لم يصله نعيُ النجم بعد،
فهو يراه، والوجود قد تخلّى عن النجم."

وهكذا أنفسنا، قال، فإنّا نُحسّ، ونضحك، ونألم،
لا لأنّ الحياة حاضرة، بل لأنّ رصدًا جارٍ في كوكبٍ أعلى،
فإذا زال الرصد

— ١٣ —

زال الضحك، وبَطل الإحساس، وانطفأ الوجدان، وعاد الفتى تُرابًا لا يدري عن نفسه شيئًا.
وما هذا الذي قُصَّ من أخبار الفتى إلا غيضٌ من فيض، وسَطرٌ من سِفر، وقَشّةٌ من بحر،
فما عاد يذكُر ما جرى له، لا لأنّ فيه نسيانًا، بل لأنّ الذي جرى أكثرُ من أن يُحاط،
ولو حاول عقلُه أن يجمعه، لانفرج كما تنفرج جلود السُحُب عن برقٍ لا يُرتق.

وكان إذا كتب، كتب لا رجاء في قارئ، بل رجاء في نفسه بعد حينٍ أن ينظر، فيرى كم كان
صغيرًا في الموضع الذي ظنّه قمةً،
وكم كانت سذاجته عاليةً تظنّها الحكمة،
فكلّ كبيرٍ قد أوجده الأكبر،
وكلّ وعيٍ إن بلغ، فما بلغ إلّا إلى عتبة وعيٍ أعمق منه، ينتظره متخفّيًا ككمينٍ لا يرحم.

فقال: "ما أوتينا من العلم إلا قليلا،
ولو جمع الناسُ أقله، فليس هو كقليلٍ آخر في وزنه وقيمته."

فقليلٌ من التبصّر قد يَسخَر من كثيرٍ من الحفظ،
وقليلٌ من التأمل يغلب كثرةَ القراءة،
وقليلٌ من الألم أبلغ من مجلّدٍ من المواعظ.

وما كلّ قليلٍ يُقاس بالقِلة،
فإنّ قلّةَ اللُّبّ تُبطل كثرةَ الكتب،
وقلّةَ الفَهم تردّ غزارةَ العِلم،
وقلّةَ الإنصاف تفسد وفرةَ الفقه،
وقلّةَ الهدوء تخرّب ازدحامَ المعاني.

فكلّ قِلةٍ

لها ميزانٌ،
ولا قِلّةَ تُشبه أخرى.